الرحلة الحجّية

للعلامة السيد محسن الأمين العاملي قدّس سره

عبد الخالق الصائغ

في كل عام، ومنذ أن أطلق نبينا إبراهيم عليه السلام نداءه بالحج، والمؤمنون يتوافدون على البيت العتيق لأداء هذا الفرض، ولم يُعِق الناس عن المجيء إليه تقلّبات الزمان وتقادم السنون، فالبيت الطاهر لم يخلُ من الحجاج منذ ذلك الحين، وحتى في زمن الجاهليّة بقيت هذه الشعيرة بعنوانها العام دون مساس؛ إلا اللهم ما شابها من إضافات أهل الشرك في بعض نداءات التلبية أو ما كان من بعض رسوم الطواف، أو ترك الحمس للوقوف بعرفات، لأنهم أهل الحرم كما ادعوا، وكانوا يرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، وهم يعرفون ويقرّون أنها من المشاعر، والحج دين إبراهيم عليه السلام[1].

قال ابن الكلبي في كتابه الأصنام: وفيهم [العرب على ذلك] الشرك وعبادة الأصنام بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسّكون بها من تعظيم البيت والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البُدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه. فكانت نزار تقول إذا ما أهلّت: لبيك

(1) ابن هشام ١: ١٦٢.

اللهم لبيك ؛ لبيك لا شريك لك ؛ إلا شريك هو لك ؛ تملكه وما ملك!. ويوحّدونه بالتلبية، ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده... وكانت تلبية عك إذا خرجوا حجاجاً، قدّموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم، فكانا أمام ركبهم. فيقولان: نحن غرابا عك! فتقول عك من بعدهما: عك إليك عانيه، عبادك اليمانية، كيما نحج الثانية! وكانت ربيعة إذا حجت فقضت المناسك ووقفت في المواقف، نفرت في النفر الأول ولم تقم إلى آخر التشريق[1].

ثم جاء الإسلام؛ فأعاد الأمور إلى نصابها الإبراهيمي، حيث بيّن النبيﷺ كل شؤون الحج كما يريدها الله تعالى؛ أضف إلى ذلك إلغاءه النسيء وعودة مواقيت الحج والعبادات الزمانية إلى حيث شاء الله تعالى أن تكون.

وقد كان لرحلة الحج في الإسلام نكهتها الخاصّة، رغم المعاناة غير العاديّة التي يتكبّدها المؤمنون فيها، وخاصّة بعد عقد الإحرام، حيث يحرم على الحاج أمور كثيرة عدّها الفقهاء في محلّها، ولم تكن رحلة المحرم رحلة يوم أو بعض يوم كما هو الحال في زماننا، حتى يسهل عليه أمر السفر وهو كذلك، وقد حَرُمَ عليه جملة من الأمور.. لا بل كان سفر الحج عموماً يعني رحلةً في المجهول من المخاطر، لذا كان من أكثر ملازمات هذه الرحلة كتابة الوصيّة.

وعلى ما وصف بعض مؤرخي السيرة، فقد استغرقت رحلة النبيﷺ من المدينة إلى مكة أسبوعاً، وليس بين المدينة ومكة غير قرابة الخمسمائة كيلومتر، فكيف حال أهل الشام والعراق، ثم فارس وما بعدها من بلاد الإسلام، وأفريقيا وما والاها؟ لذا قلت: إن رحلة الحج كانت ذات نكهة خاصة، فهي مغامرة ملؤها القصص، فالحاج إن كتب له العودة بالسلامة إلى بلده، بعد أداء فرضه، يكون لديه من القصص والحكايات ما يشدّ المستمعين.

واليك قصة رحلة من هذه الرحلات، قام بها واحد من كبار علماء المسلمين

(١) ابن الكلبي الأصنام: ١ ـ ٤.

من جبل عامل، وهو المرجع المقدّس السيد محسن الأمين العاملي؛ لكـن، وقـبل الخوض في وصف تلك الرحلة، إليك أيها القارئ العزيز هذه النبذة من سيرته، مع ملاحظة أن جميع التواريخ الواردة هنا هي بحسب التاريخ الهجري القمري:

المجتهد الكبير المرجع السيد محسن الأمين، بن السيد عبد الكريم، بن السيد علي، ينتهي نسبه الشريف إلى زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام، ولد سيدنا الأجل كما ذكر هو[1] في قرية شقراء من بلاد جبل عامل سنة ١٢٨٤؛ وقد أكّد ذلك من خلال قرائن، حيث لم يكن تدوين المواليد سائداً في زمانه لاسيّما في القرى.

وعندما كان في السابعة، التحق بكتّاب لتعليم القرآن ليوم واحد، فلم يرق له البقاء فيه لما رأى من معاناة الطلبة، فقامت والدته بتعليمه القـرآن حـتى خـتمه، وتعلّم الخط عند بعض شيوخ العائلة، وبعد ذلك رغب بالدراسة الديـنية فـتابع دراسة ما ينبغي درسه لطالب العلم من العلوم، كالنحو والصرف أولاً في قريته؛ ثم في قرية عيتا الزط، وبقي في عيتا إلى أن سافر شيخهم إلى العراق، وكانوا يـقرؤون عليه المغني؛ فقصد رحمه الله بلدةً أخرى فلم يستفد من شـيخها، فـقصد الشـيخ موسى شرارة في بنت جبيل، التي اضطر لتركها بعد وفاة الشيخ موسى رحمـه الله عام ١٣٠٤؛ والتحق بدرس أستاذ كان قدم من العراق حديثاً فلم يرق له درسه، فتركه، وقال عن نفسه رحمه الله: ولم تكن نفسي تميل إلى عشرة العـوام، وكـنت أقضي أوقاتي في التدريس والمطالعة والعزلة عن الناس، ونفسي تتوق للهجرة إلى العراق، فلا أستطيع ذلك.

وفي هذه الأثناء، طلبوه للخدمة العسكرية، فاضطر لمغادرة بلده إلى قـرية الغور، وهي قريبة من حمص، بقي فيها فترة ثم عاد إلى وطنه، حيث توفيت والدته وأصيب والده بنزول الماء على عينيه فكفّ بصره، وكان للسيد رحمه الله شقيقتان لا كافل لهما غيره فاضطر للعمل، وبقي ينتظر الفرصة المؤاتية للسفر إلى العراق.

---

(١) معادن الجواهر ٤: ٢١.

وطُلب للعسكرية مرّةً أخرى، وقدّر الله تعالى له أن يُعفى، بعد أن أشار عليهم البعض بتأسيس مدرسة وتسجيلها رسمياً، ومن خلالها يتم تسجيل الطلاب ويتقدّموا بامتحان للحصول على الإعفاء، وفعلوا ذلك ورخّصت المدرسة، وقدّم السيد الامتحان في بيروت مع جماعة من الطلبة أمام لجنة خاصة، ونجح، فأعفي كطالب علم؛ وبقي حلم السفر إلى العراق يراوده رغم صعوبة الأحوال، لكنه عزم أخيراً على ذلك متوكلاً على الله، فسافر إلى العراق سنة ١٣٠٨.

كان خلال إقامته في النجف يدرس ويدرّس، وكان أساتذته في العراق كما ذكر رحمه الله: السيد علي الأمين، والسيد أحمد الكربلائي، والشيخ محمد باقر النجمابادي، والشيخ ملا فتح الله الإصفهاني، والشيخ ملا كاظم الخراساني صاحب الكفاية، والشيخ آقا رضا الهمداني صاحب مصباح الفقيه، والشيخ محمد طه نجف.

بقي رحمه الله في العراق إلى سنة ١٣١٩؛ حيث كتب له الشيعة في دمشق يطلبون حضوره إليهم والسكن عندهم، فكانت مدّة إقامته في العراق عشر سنوات ونصف كما ذكر هو في غير موضع من ترجمته في كتابه معادن الجواهر[1]؛ وقد ورد السيد رحمه الله دمشق في أواخر شعبان ١٣١٩، وقام بمجموعة إصلاحات كان لا بد من القيام بمثلها لرجل مثله؛ بدأ بالتعليم، حيث لاحظ تفشّي الأميّة، فأسس مدرسةً للبنين وأخرى للبنات، وتطوّرت هاتان المدرستان حتى صارتا من أكبر المدارس وأكثرها امتيازاً، وهما مستمرتان حتى يومنا هذا، وقد جعل لهما بعض الأوقاف.

أما مدرسة الذكور فكان اسمها العلويّة، واسمها اليوم المحسنيّة، ومدرسة

---

(١) معادن الجواهر ٤: الصفحات ١٠١ و ١٠٣ وغيرها، وكانت ترجمته رحمه الله في هذا الجزء من المفروض أن تطبع ضمن كتاب أعيان الشيعة، الجزء الأربعون، لكن السيد رحمه الله قال في مقدمته: وقدّمناه للطبع قبل الوصول إلى محلّه من الكتاب خوفاً من مفاجئة الأجل. وترجمة السيد رحمه الله هنا هي ملخص عن ١٤٥ صفحة وردت في هذا الكتاب بقلمه أعلى الله مقامه.

الإناث سميّت باليوسفية. وقد أطلق السيد رحمه الله اسم اليوسفية عليها تقديراً منه للحاج يوسف بيضون رحمه الله، الذي تبرّع بثمن الدار الذي أقيمت فيه المدرسة، وكان ثلاثة آلاف وثمانمائة ليرة عثمانية ذهبية، وعيّن ألف ليرة أخرى يصرف ريعها لنفقات المدرسة..

ثم إن سيدنا المترجم رحمه الله، كان يتنقّل بين بلدته شقراء ودمشق، و اضطر في الحرب العالمية الأولى أن يسكن عياله شقراء، وظلّ هو يتردد على دمشق؛ فكان يقوم بأداء رسالته الدينية في كل من سوريا ولبنان؛ فكان لوجوده المبارك الأثر الكبير في حلّ كثيرٍ من عويصات المشاكل في حينه؛ وامتد تأثيره المباشر إلى بعض الأحداث السياسية التي وقعت في تلك الفترة في سوريا، وقد نظر الوطنيون السوريون بعد الثورة إليه نظر التبجيل والاحترام، لذا تمّ تغيير اسم المنطقة التي كان يسكنها إلى "حي الأمين"، وقد كان اسمها قبل ذلك "الخراب"؛ كما أن الشارع الذي كان يقطن فيه حمل اسمه أيضاً.

رفض رحمه الله تقسيم الحكومة السورية المسلمين إلى سنة وشيعة، وكتب إلى الحكومة أن الشيعة تعتبر المسلمين طائفةً واحدة، ولا تريد الافتراق عن إخوانها السنّة، فكان لذلك الوقع الحسن عند الوطنيين، فقرّرت الحكومة أن المسلمين طائفة واحدة لا فرق بين سنيّهم وشيعيّهم؛ ولمّا أصدر الفرنسيون قانون الطوائف كان من المحتجّين عليه.

وفي وقت لاحق عزم الفرنسيون على إحداث منصب رئيس علماء للشيعة في سوريا ولبنان، وأصدروا مرسوماً بتعيينه لكنه رفض المرسوم.

اهتم السيد رحمه الله بجمع تراث عاملة الذي سلم من أيدي العابثين، وعلى رأسهم الجزار، واشتغل في غالب وقته بالكتابة والتأليف إلى أواخر حياته وقد ناهز التسعين من العمر؛ ولم يكن ليترك الكتابة حتى في السفر، فكان يصطحب بعض كتبه معه، لا بل كان ينشئ أسفاراً لأجل بعض المعلومات التي يحتاج إليها

لبعض كتبه، لاسيّما حين كان يشتغل بكتابه «أعيان الشيعة».

ترك السيد الأمين عشرات الكتب في مختلف المواضيع والعلوم، كانت وما زالت من غرر ما كُتب في مواضيعها، و يعدّ كتابه «أعيان الشيعة» واحداً من أهم آثاره المميزة التي تركها بعد رحيله في جملة من نفائس المؤلفات.

كان للسيد الأمين رحمه الله من القداسة ما جعله ملاذاً في الشدائد، وقد روي أنّه استسقى للناس مرتين، بعد قحط وجدب أرهق العباد، حيث إنّ مورد رزق العامليين في ذلك الزمان كان يعتمد بالدرجة الأولى على الزراعة، فخرج بالناس كما ورد في السنّة، صغارهم وكبارهم بعد صيام، ثم صلى بهم صلاةً جامعة، وتضرّع لله تعالى، وما مرّ على ذلك إلا سويعات حتى أمطروا..

كان يوم وفاته رحمه الله مشهوداً، فقد انتقل إلى جوار ربه الكريم قرابة منتصف ليلة الأحد ٤ رجب ١٣٧١، الموافق ٣٠ آذار ١٩٥٢، وكان لخبر وفاته صدى مسموعاً في أنحاء العالم الإسلامي، وأقيمت المآتم ومجالس الفاتحة عن روحه الطاهرة في مختلف العواصم والمدن الإسلامية.

دفن رحمه الله بجوار السيدة زينب سلام الله عليها في دمشق في غرفة خاصّة عند مدخل الحرم، وذلك بعد أن أجري له أعلى الله مقامه في بيروت تشييع رسمي وشعبي قلّ نظيره، ونُقِل الجثمان الطاهر إلى دمشق بموكب عظيم، واستقبلته الحكومة السورية عند الحدود استقبالاً رسمياً وشعبياً إلى مثواه الأخير.

رحلة الحج

في وصف رحلة حجّ سيدنا الأجل، اعتمدت على ما ذكره هو في الجزء الثاني من كتابه معادن الجواهر ونزهة الخواطر، مع تعليقتين أخذتهما من كتابه أعيان الشيعة، أشرت إليهما في الهامش.

قال السيد الأمين رحمه الله متحدّثاً عن رحلته من البداية، بعد أن عزم على الحج إلى بيت الله الحرام، وكان ذلك سنة ١٣٢١:

خرجنا من دمشق يوم الاثنين سابع ذي القعدة الحرام سنة ألف وثلاثمائة وإحدى وعشرون بقصد الحج إلى بيت الله الحرام، فركبنا القطار الحديدي من دمشق قاصدين بيروت في الدرجة الثانية، بأجرة أربعة مجيديات[1] عن الشخص؛ ودخلنا بيروت بعد غروب الشمس بربع ساعة، فبتنا بها ليلة الثلاثاء، وفي مساء يومها ركبنا في الباخرة الفرنسية من شركة الميساجيري في الدرجة الثالثة، وفيها أربعة درجات، والأجرة ثلاثة أرباع ليرة فرنسية إلى بور سعيد، فتحركت بنا من بيروت في الساعة الثانية تقريباً من ليلة الأربعاء، فوصلنا بور سعيد في الساعة الثامنة من يوم الأربعاء...

وبتنا في بور سعيد ليلة الخميس، وخرجنا منها يومه في الساعة الخامسة

---

(١) المجيدي عملة تركية من الفضة، وهنا ربّما يكون من المفيد ذكر العملات التي كانت تتداول هناك وما تعادله بالنسبة للعملات الأخرى، ونذكر هنا ما كان في القطيف قريباً من تلك الفترة، فالعملات التي كانت سائدة في القطيف خلال القرن التاسع عشر الميلادي قبل الاحتلال التركي الأخير، كان منها (القران) بفتح أوله وثانيه، وهو عملة فارسية فضية، تساوي ٤٠٪ من قيمة الروبية الهندية، وفئاته الحدج والمرضوف والهشتي والأردي الذي يساوي ربع حدج، والمرضوف والحدج عملتان نحاسيتان، ومنها التومان الفارسي، ويساوي ١٠٠ محمدي... وهناك عملة أجنبية أوروبية يتعامل بها الناس، وهي ريال تريزا الفضي النمساوي، ويساوي ٣ روبيات، وقد كان متداولاً بين البداة حتى وقت متأخر.

وجميع تلك العملات اضمحل التعامل بها بعد سيطرة الأتراك على البلاد، حيث حلت العملة التركية محلها، ومن بينها الليرة العثمانية الذهبية التي تساوي ١٢ روبية، والمجيدي وهو عملة فضية تساوي ٣ روبيات، وينقسم إلى فئات منها: الجرخي بالجيم المخففة ويساوي ١٦/١ من المجيدي، والمتليك والقمري، وهي أسماء لعملة تساوي $\frac{1}{4}$ من الجرخي، وهي بدورها تساوي ١٠٠ بارة، والبارة أصغر عملة تركية.

والدقيقة الخامسة في القطار الحديدي الضيق[1]، وهو بقدر عرض الخط الذي بين دمشق وبيروت، قاصدين الإسماعيلية، وكانت العملة تشتغل بإبدال ذلك الخط الضيّق بخط عريض؛ فوصلنا الإسماعيلية في الساعة الثامنة من يوم الخميس.

والإسماعيلية بلدة في طريق القاصد من بور سعيد إلى مصر، أحدثها إسماعيل باشا أحد الخديويين، فنسبت إليه؛ وانتقلنا في الإسماعيلية إلى القطار الحديدي ذي الخط العريض، وهو أسرع من الأول و أتقن، ولا تسل عن شطط الحمالين الذين ينقلون الأمتعة من قطار بور سعيد إلى قطار مصر في طلب الأجرة، وبين القطارين بضعة أقدام؛ فدخلنا مصر قبل غروب الشمس بنصف ساعة من يوم الخميس، وكانت الأجرة من بور سعيد إلى مصر أربعين قرشاً صحيحاً مصرياً ونصف قرش[2] فبقينا في مصر ستة أيام.

كان السيد رحمه الله مشغولاً في بعض تلك الفترة بتصحيح ملازم رسالته «الروض الأريض في حكم تصرفات المريض»، وقد أرسلها إلى مصر لتطبع هناك نتيجةً لتشدد الحكومة العثمانية في أمر المطبوعات، حيث كان الأمر يستلزم ترخيصاً من الأستانة بعد تقديم نسختين من المؤلَّف، وما يكلّف ذلك من العناء والمال، وأيضاً التشدد غير العادي في مراقبة المحتويات.

مصر

ثم تطرق السيد رحمه الله إلى وصف عظمة مصر، ورخص أسعارها، ووفرة الأشياء فيها، وعظيم محبة المصريين لآل البيت عليهم السلام، واحترامهم للسادة الأشراف، وتحدّث عن حسن نظم الأمور فيها في كلّ شيء، فجميع الناس في راحة خيِّرهم وفاجرهم، وتطرّق إلى سهولة التنقل فيها لانتشار خطوط السكّة

(١) خطوط القطار على قسمين: الضيق القديم وهو النظام المتري ويبلغ عرض السكة فيه ١٠٦٧ ملم، والحديث القياسي ويبلغ عرض السكة فيه ١٤٣٥ ملم.

(٢) وكان كل قرش مصري يعادل قرشين ونصف رائج الشام.

الحديد، حيث فيها محطة عظيمة فخمة، ليلها كالنهار من الأنوار الكهربائية، وما ليس فيه سكّة من المناطق، فالعربات تصل إليه، وهي كثيرة؛ ثم ذكر الأهرامات وعظمتها وما جاورها من آثار، ومرّ على ذكر حديقة الحيوانات وما فيها من صنوف الحيوان؛ وقلعة الجبل ومسجد محمد علي باشا؛ و الأنتيكة خانة[1]؛ ثم تحدّث عن الجامع الأزهر ومشهد رأس الحسين عليه السلام، قال: وعنده مسجد كبير فخم متقن البنيان.. وتصنع فيه كسوة الكعبة الشريفة التي يبعث بها المصريون كلّ سنة.

ثم ذكر مشهد السيدة زينب وتعظيم أهل مصر للمشهدين، وشبّه تعظيمهم بتعظيم العراقيين لمشاهد أئمة أهل البيت عليهم السلام.. وذكر من المشاهد: مشهد السيدة نفيسة، والإمام الشافعي.. ثم عاد لذكر بعض أهم معالم مصر، وهي القناطر الخيرية؛ ثم ذكر لقاءه بالشاعر الشهير الشيخ عبد المحسن الكاظمي الذي زار السيد بصحبة نقيب الأشراف، وكان بينهما كلام حول نظام التعليم في النجف، ومقارنة ذلك بالنظام المتبع في الأزهر..

السويس وبور توفيق

قال رحمه الله: وبعد أن أقمنا بمصر ستة أيام، ركبنا القطار الحديدي إلى الإسماعيلية، فالسويس، فبقينا فيها يومين، ثم ركبنا البحر في مركبٍ يسمى عبد المنعم، من المراكب الخديوية، وأكثر عمّاله من المصريين، بأجرة ٢٥٠ قرشاً مصرياً صحيحاً في الدرجة الثانية و ١٥٠ في الدرجة الثالثة الأخيرة.

وأطرى السيد على ما رأى من حسن الترتيب في السويس، فقال: إن ميناءها التي تسمى «بور توفيق» نسبةً إلى توفيق باشا الخديوي، وتبعد عن البلد مسافة، ولها قطار حديدي مخصوص يذهب ويجيء كل ساعة مرة، وقد جعل لها مرفأ تصل إليه المراكب العظام إلى جنبه[2]، فتخطوا الركاب من البر إلى المركب

(١) المتحف.

(٢) يريد بذلك رصيف الميناء.

بدون حاجة إلى زورق، وعند مدخل المرفأ باب كبير، وعلى جانبه جنديان ينظمان الدخول بالدور، فأول ما تؤخذ أمتعة الركاب، يأخذها الحمالون بالعدد، ويحفظ صاحبها نمرة الحمّال، وذهبت مع بعض رفقائنا لعلّنا نتمكن من الدخول فنختار مكاناً موافقاً، لأننا أخذنا مكاناً في الدرجة الثانية، وليس في المركب درجة ثانية، فجعلوا ظهر الدرجة الأولى بدل الدرجة الثانية، وكان خيراً من الدرجة الأولى.

قال رحمه الله: فلما وصلنا الباب رأينا جماعة من المغاربة معمّمين، عليهم البرانس يحاولون الدخول، فمنعهم الحرس فلم يمتنعوا، فأعملوا فيهم ضرب السياط، فوقفت مع رفيقي ناحية، فلما رآني الحرسيان أشارا إلي أن تعال، فأتيت، فقالا: يا شريف! تريد أن تدخل؟ قلت: نعم؛ قالا: تفضل؛ قلت: ورفيقي؟ قالا: ورفيقك؛ فدخلنا قبل كل أحد، وفي أيدينا أوراق المركب والكرنتينا والجواز؛ واخترنا لأنفسنا ولمن معنا من النساء والرجال أمكنةً حسنة واسعة، ثم جاء رفقاؤنا؛ وأقلع بنا المركب من السويس مساءً، فوصل الطور ضحوة الغد، وبقي هناك ينقل ما حمله إلى الطور من آلات البناء، لأجل بناء محجر في الطور بقية ذلك اليوم والليلة التي بعده وفي غدها إلى الليل.

ثمّ أقلع من الطور قاصداً جدّة، فوصلناها بتمام الراحة؛ لأن البحر كان ساكناً إلا في موضعٍ يدعى ببركة فرعون ورأس أم محمد، فهاج البحر، وهاجت المرّة الصفراء بأكثر الحجاج، وذلك بعدما أحرمنا بيسير، وكنا في الليلة التي أحرمنا في صبيحتها اغتسلنا في حمّام في المركب، منارٍ بالكهرباء، يجيء ماؤه من البحر، ويغسل فيه الإنسان منفرداً بأجرة قليلة؛ ولبسنا ثوبي الإحرام بعدما خلعنا المخيط.

نذر الإحرام قبل الميقات

في الصباح، نذرنا الإحرام قبل محاذاة الميقات، تخلّصاً من الإشكال [معرفة محاذاة الميقات للإحرام وعدم تجاوزه] بناءً على ما هو الحقّ من جواز الإحرام قبل

الميقات بالنذر... وتحدّث أعلى الله درجاته عن مسألة النذر للإحرام، ثمّ تطرّق للكلام عن كيفيّة تعيين محل الوفاء من خلال الساعة؛ لعدم إمكان تشخيص الأماكن في البحر، لذا لا يمكن الاعتماد على غير الوقت للدقّة؛ لذلك قال رحمه الله: وعيّنا مكان الإحرام حين النذر بالساعة، على أننا إن بقينا إلى المكان الذي تكون فيه الساعة كذا نحرم من ذلك المكان، فلما صارت تلك الساعة عقدنا الإحرام بالتلبية، وبقينا مستحضرين للنية مكرّرين للتلبية حتى وصلنا المكان الذي قال الربان: إنه يحاذي الميقات، وهو «الجحفة» القريبة من رابغ، وآذن الربان بذلك بصفير المركب، وتجاوزناه كثيراً ونحن نلبي مستحضرين للنية، ولكن ظهر لنا بعد ذلك أنّ من يريد الاحتياط التام، فلينذر الإحرام من السويس...

إجراءات الوقاية من الأمراض والأوبئة في ذلك الزمان

قال رحمه الله: ولما وصلنا جدّة، نزلنا في سفينة أقلّتنا إلى جزيرة في البحر، مسافة ساعة عن جدّة تقريباً، لأجل تبخيرنا وتبخير الفراش والدثار فقط، ليموت ما فيها من الميكروب، خوفاً من سراية الأمراض الوبائية، وذلك بسبب مرورنا على مصر، مع أنها خالية من كل مرض وبائي، وكل من يحضر من الديار المصرية يأخذ ورقة من إدارة الصحة بأنه سالم من كل مرض، فيدفع رسماً عن ذلك ثلاثة قروش صحيحة وكسراً؛ فسرنا محرمين والبحر هائج، والشمس تصهرنا، والبحر يقذف علينا من مياهه، حتى وصلنا الجزيرة بغاية المشقة، فوجدنا السفن حولها مملوءةً بالحجاج، والشمس على رؤوسهم، ومنعوا الناس من دخول الجزيرة تحكّماً بلا فائدة مظنونة ولا موهومة، إلى أن أخذوا الفراش، ووضعوه في المبخرة ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة حتى دخل البخار في أعماقه، ورشوه بالفينيك، ثم أذنوا للركاب بدخول الجزيرة من باب مخصوص، وأوقفوهم في مكان مخصوص، ثم أمروهم بالخروج من باب آخر، كأنهم قطيع غنم يصرفه الراعي كيف يشاء، وهذه الجزيرة لا ماء فيه ولا كلأ، فأضرّ العطش بهذا الجمع

المحتشد..وبعد هذا أعطوا ورقةً بأسماء الراكبين في السفينة، ليأذن لهم أهل المـيناء بدخول البلد.

الوصول إلى جدة

ثم سرنا من الجزيرة قاصدين جدّة في حرّ الظهيرة، والأمواج تـفيض عـلى الوجوه والرؤوس والأبدان والأردية والأزر، والسفينة تصعد تارةً وتهبط أخرى، ونحن في خوف من الغرق لشدّة الأمواج، ولولا الذهاب إلى الجزيرة لوصلنا الميناء بسهولة.. وعند الوصول إلى الميناء، أخرجونا من السفينة وأدخلونا مـن بـاب، ونحّوا السفينة إلى باب آخر، وفيها الأمتعة مع الملاحين، ثم أتـوا بـنا إلى شـبّاك، والمأمور داخل الشباك، فقال إنسان: ادفعوا عـن كـل شـخص نـصف مجـيدي، فدفعنا؛ وأخذنا أوراقاً، فمشوا بنا قليلاً وأخذوا الأوراق، وقرضوها بمـقراض، ثم أتوا بنا إلى مكان قريب من هذا المكان، وأخذوا جوازات السفر وقالوا: ادفعوا عن كل جواز غرشين وربعاً صحيحة، فدفعنا، وأعطوا كل واحد ورقة علامة على أنه دفع ما عليه، ليأذن له البوّاب بالخروج؛ فخرجنا، ووجدنا السفينة واقفة، فأخذنا منها الأمتعة؛ وبسبب قلّة الركاب، لم يسرق منها شيء، ولكن لا تسل عن الذين جاءوا بعدنا عصراً، ولم يصلوا إلى أمتعتهم إلا بعد ظلام الليل، ماذا جرى عليهم ؟! وكم فقد من أمتعتهم ؟ وكم باكية لفقد نفقتها التي وضعتها داخل خرجها.

وبعد فراغنا من مزاولة هذه المشاق دخلنا البلد، ونزلنا داراً عـالية البـنيان متسعة البيوت، فيها أربعة طبقات، كما هو الحال في أكثر بيوت جدة، والأجرة عن كل نفس ثلاثة قروش صحيحة يومياً، فبقينا في جدّة سـتة أيـام نـنتظر أمـتعتنا المشحونة من بيروت، فبعد وصولها ومعاناة مشقة التفتيش في الكمـرك، سـافرنا قاصدين مكة المكرمة؛ وفي جدّة زرنا قبر أمّنا حواء، وقبرها خارج البلدة، مفرط في الطول.

مدينة جدة

وجدّة مدينة مسوّرة ،لها ثلاثة أبواب ، وفيها قناصل الدول ، ولا يؤذن لغير المسلمين في الخروج خارج السور ، ويوجد فيها كثير من السودان الغُبر الألوان ، وما فيها إلا الجائع العريان ، وأسعارها غالية ، وماؤها أجاج منتن ، يتجرّعه الشارب ولا يكاد يسيغه ، والسقاء الصغير منه بقرش واحد صحيح ، ولكن ظهر لنا بعد ذلك أن فيها ماء حلواً في الصهاريج من ماء المطر لم نعلم به .

الخروج من جدّة

وعن الذهاب من جدّة إلى مكة قال رحمه الله: وكانت أجرة البعير من جدّة إلى مكة تسع مجيديات وربعاً وغرشين صحيحين ، ولكن لا يصل إلى الجمّال منها إلا اليسير ، والباقي يأخذه المخرج باسم الحكومة ؛ وقطع الأجرة بأمر من الحاكم ، وكل جمّال يأخذ كوشاناً بعدد ما معه من الأباعر ، بعد دفع الرسم المفروض عليه ، والذي ليس معه كوشان لا يدعونه يدخل مكّة حتى يؤخذ منه الرسم ، والذي يركب مع الأعراب خارج جدّة يأخذون منه نصف هذه الأجرة أو ثلثها ، وهم يصيحون في الطريق : يارويجب ، يارويجب . وعند الخروج من باب جدّة أخذوا عن كل بعير غرشين صحيحين ، وبسبب الوقوف بالباب ، سرقت أمتعة لكثير من الحجاج ، وأكثر سرّاقها أفراد العساكر النظاميّة الموضوعين لحفظ الأمن ؛ وسُرق لنا إبريق نحاس .

وسرنا من جدّة إلى بحرة فوصلناها بعد الغروب ؛ وأدركتنا صلاة الظهرين في الطريق ، لأننا خرجنا من جدّة قبل الظهر ، فنزلت أنا وزميلي من الخشب[1] وتوضئنا أولاً ، ثم سرنا قليلاً وصلّينا الظهر ، ثم سرنا كذلك وصلّينا العصر ؛ لأنّه لا يمكن الانقطاع عن القافلة لحظةً من خوف الطريق ، مع أن العساكر النظاميّة

(١) و هو مركب طويل له شقتان يركب فيه اثنان على بعير واحد.

منتشرة من جدّة إلى مكة، في السهول وعلى رؤوس الجبال، ينفخون في بوقاتهم، فيجيبهم الآخرون؛ ولكن هؤلاء العساكر لا يفترون عن سرقة ما يمكنهم من أمتعة الحجّاج؛ وصادف أنّه بينما نحن نسير، إذا بامرأتين من رفقائنا راكبتين في خشب شامي وقف بهما البعير عجزاً عن السير، وأباعر الحجاز دقيقة الساق لا تقوى على حمل الخشب الشامي، فنزلت أنا ورفيقي نمشي وأركبناهما مكاننا إلى بحرة، فوصلناها بعد الغروب.

بحرة

وهي في وسط الطريق بين جدّة ومكة، وكلّها قبائج مملوءة من القراد الذي يلتصق بالأجساد، وماؤها كماء جدّة، وليس فيها مسكن إلا أرض محاطة بقصب ونحوه ينزل فيها الحجاج، ويبذل لهم أهلها الماء والضياء والحطب لقاء دراهم يأخذونها، وقد أتونا قريباً من نصف الليل بوجوههم السوداء الكالحة، بأيديهم المشاعل، وعلى متونهم البنادق، وجعلوا يوقظون الحجّاج بعنف وإزعاج، وقد أخذهم النعاس، وأضناهم التعب، ويطلبون منهم أجرة ويشتطّون في المقدار، ويعنّفون بالناس كأنّهم يأخذون جزية، وكأنّهم زبانية جهنم أو منكر ونكير؛ ومن لم يدفع لهم كما طلبوا، وهو أضعاف ما فُرض لهم، أوسعوه شتماً، بل وضرباً إن تمادى في الامتناع؛ وإذا هدّدهم بالحاكم، سبّوه وسبّوا الحاكم، فقبحوا من قوم سوء.

ثم سرنا من بحرة صباحاً، فوصلنا مكّة عند العصر، وقد سلبت في هذا الطريق قوافل قبلنا وبعدنا ومعنا، وجرى قتل ونهب في أكثر الأوقات، أما نحن فلم نر شيئاً من ذلك، والحمد لله.

حدود الحرم

هناك أحكام تتعلق بحدود الحرم والمشاعر، منها حرمة الدخول لغير المحرم، ولزوم الوقوف في نفس عرفات والمكث في المزدلفة والمبيت في منى، وكلّها لها

حدود معلومة منذ القدم، ويحدّثنا السيد الأمين رحمه الله عن هذه العلامات التي كانت واضحة، عندما خرجوا من جدّة ووصلوا إلى مكة، قال رحمه الله: وقبل الوصول لمكّة المشرّفة رأينا العلامات الموضوعة في أوّل الحرم من جهة جدّة، فقرأنا الأدعية الواردة عند دخول الحرم، ولم نتمكّن من الغسل.

مكّة المكرّمة

ونزلنا في مكة في شعب عامر، في دار رجل يماني قاطن في مكة، في دار جيدة، وكان وصولنا إليها قبل هلال ذي الحجة بيومين، ورأينا الهلال ليلة الجمعة خفيفاً جداً قبل مغيبه بيسير، وكان ذلك من جملة نعمه تعالى علينا، فكان الوقوف بعرفة في يوم واحد لجميع المسلمين.

وبعد أن أدّوا عمرة التمتع، قال رحمه الله: وفي يوم التروية ثامن ذي الحجة، اغتسلنا وأحرمنا للحج من مقام إبراهيم عليه السلام، وخرجنا قاصدين منى، فوصلناها مساءاً، ونزلنا قرب مسجد الخيف، وصلينا فيه تلك الليلة المغرب والعشاء، وخرجنا منها صباحاً إلى عرفات، وقد وضعت علامات بآخر الحرم من جهة عرفات، فنوينا الوقوف بعرفات من الزوال إلى الغروب، وكنا في مجموع هذه المدّة مشغولين بالدعاء والتضرّع إلى الله تعالى لنا ولإخواننا المؤمنين، وزرنا الإمام الحسين عليه السلام... وبعد الغروب نفرنا من عرفات راجعين إلى المزدلفة وهي المشعر، وتسمى جمعاً أيضاً، وهي بين منى وعرفات، وقد وضعت علامات لحدود عرفات من جهة المشعر، لأنّه لا يجوز الخروج من حدود عرفات قبل الغروب... والمأزمان بالهمز أيضاً في تلك الأماكن تثنية مأزم، والمأزم الطريق الضيّق بين جبلين، والمأزمان أحدهما مضيق بين جمع وعرفة والآخر بين مكة ومنى...

قال رحمه الله: وبذلك النفر يتذكّر الإنسان يوم النشور، فبتنا في المشعر، والتقطنا منه الحصيّات حسب الاستحباب.

يوم عيد النحر

وفي الغد رجعنا إلى منى، وهو يوم عيد النحر [الأضحى] وبعد الوصول بيسير ذهبنا إلى مكان بيع الأضاحي، فاشترينا هدياً بليرة عثمانية، حسب ما طلب بائعه، ولم نساومه لكراهة المساومة فيه، وذبحناه وتصدّقنا بثلثه، وأهدينا ثلثه، وكانت الجنود تمنع من حمل اللحوم إلى الخيم، خوفاً من انتشار الروائح الكريهة، على أنه لم يكن منعاً شديداً، فأخذنا شيئاً من الهدي لنأكل منه حسب الاستحباب؛ ومن لم ير ذلك المكان، لا يعلم حقيقة معنى قول القائل «مجزّرين كالأضاحي»، وبعد الزوال عمدت جنود الحكومة إلى جمع ما بقي من تلك اللحوم والأوساخ المطروحة في مكان الذبح، فدفنتها في حفر أعدّت لذلك، ولم يحدث في الحاج مرض في تلك السنة في منى وعرفات، وكانوا بتمام الصحّة، وكان الحاجّ متوسط العدد.

ويبدو من وصف السيد رحمه الله أنّه لم يكن هناك زحام كالذي نشهده اليوم، ولو نسبياً، حيث لم يتحدّث عن تدافع ولا اختناقات ولا غيرها، حتى في أعمال الحج من الرجم والطواف عندما تطرّق لها، كما سنرى، فإنّه أتمّها بسهولة ويسر في نفس اليوم، حيث في رحلته الثانية سنة ١٣٤١هـ ذكر الزحام الذي كان ضمن طيات الكلام تلميحاً.

الجمرات الثلاث

وبعد النحر ذهبنا لرمي جمرة العقبة [هكذا أورد السيد رحمه الله الترتيب] وهي أوّل جمرة من جهة مكّة، وبعدها جمرة تسمى الوسطى، وبعدها جمرة تسمى الأولى لأنها ترمى أولاً في الأيام التي ترمى فيها الجمرات الثلاث، وجمرة العقبة تسمى الأخيرة، لأنها آخر ما يرمى إذا رُميَت الجمرات الثلاث، وذلك في الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة... أما في يوم النحر، فلا ترمى إلا جمرة العقبة فقط، وأصل الجمرة مجتمع الحصا.

وجمرة العقبة بناء في سفح الجبل، ظهرها إلى الجبل ووجهها إلى الطريق الذي

بين مكّة ومنى، والوارد استقبالها في الرمي، أي رميها من قبل وجهها لا رميها من أعلاها، بحيث يصعد في الجبل ويرميها من فوقها، وسميت جمرة العقبة لوجود عقبة هناك ليست بعالية، فإن الطريق من مكّة إلى منى يأخذ في علوّ يسير، لا يدرك حتى يصل إلى قريب منى، فهناك ترى عقبة يسيرة، تصعدها فتصل إلى منى؛ وهي سهل فسيح تكتنفه جبال شاهقة من الجنوب والشمال، وكذلك عرفات، وأكثر بلاد الحجاز طرقها في سهول تكتنفها جبال.

بئر زمزم

ولم يكن بمكة قديماً غير ماء بئر زمزم، التي هي قرب الكعبة المشرّفة، وماؤها لا يخلو من مجوجة يسيرة، وكان الحجّاج يحملون الماء معهم من مكّة إلى منى وعرفات عند خروجهم إليها يوم الثامن من ذي الحجّة، ولذلك سمّي يوم التروية.

العودة إلى مكّة

وبعد أن رمينا جمرة العقبة يوم العيد حلقنا، وفي اليوم الثاني رجعنا إلى مكّة، وطفنا طواف الحج، وسعينا بين الصفا والمروة، وطفنا طواف النساء، وصلّينا صلاة الطوافين، وذلك لأنّ المستحب الرجوع إلى مكّة يوم العيد بعد الرمي والحلق، لأجل طواف الحج، الذي يسمى طواف الزيارة، أي زيارة البيت، ولأجل السعي وطواف النساء... فإن لم يتمكّن من الرجوع إلى مكة يوم العيد ففي الذي بعده، وحيث لم يمكننا الذهاب يوم العيد ذهبنا في الحادي عشر، ثم عدنا إلى منى فبتنا بها...

الزينة بمنى

يبدو من خلال ما ذكره سيدنا المقدّس رحمه الله أنّ هناك طقوساً كانت تجري للاحتفال بالعيد في منى، ونقل أعلى الله درجاته بعض ما كان يجري بقوله: وفي

تينك الليلتين، كانت منى في زينةٍ عظيمة، تضرب بها المدافع من مكان المحملين الشامي والمصري، فيتردد صداها في تلك الأودية والجبال، وتعلو الحرّاقات في الجوّ بألوانها المختلفة البديعة الشكل.

ثم قال رحمه الله عن باقي أعمال الحج: ورمينا الجمرات الثلاث في ذينك اليومين ثمّ عدنا إلى مكّة يوم الثاني عشر بعد الظهر.

وكما في كل عام، يكون في الحج بعض الزعماء، وذوي الجاه، وفي تلك السنة كان منهم جماعة ذكر منهم رحمه الله: امرأة من ملوك الهند، وبعض ملوك الغرب، ووزير الصدر في إيران ميرزا علي أصغر خان الملقب أمين السلطان.

المزارات بمكّة

وتشرّفنا في أثناء إقامتنا بمكّة بزيارة قبور: أبي طالب، وعبد المطّلب، وعبد مناف عليهم السلام، وخديجة بنت خويلد أم المؤمنين عليها السلام، ومولد النبي صلى الله عليه وآله ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام وغيرها من الأماكن المشرّفة. وصعدنا إلى جبل أبي قبيس، وهو مشرف على الكعبة المشرّفة.

الدخول إلى الكعبة المشرّفة

ودخلنا ليلاً إلى الكعبة المشرّفة، وصلّينا في جوانبها الأربعة، وعلى الرخامة الحمراء، وهي ما بين العمود الأخير الذي يلي حجر إسماعيل، والذي قبله، فإن فيها ثلاثة أعمدة من خشب، ممتدة من وسط الحائط الذي بين الركن اليماني ... إلى وسط الحائط الذي يلي حجر إسماعيل وباب الكعبة المشرّفة، قريب من الركن الذي فيه الحجر الأسود، عال عن الأرض بأزيد من قامة، يُصعد إليه بدرج منقول، وقوّام الكعبة الذين بيدهم مفاتيحها هم بنو شيبة منذ عهد الجاهليّة إلى اليوم، ورأينا داخل الكعبة حرّاً شديداً لعدم المنافذ، مع أن ذلك كان في وسط الشتاء، لكنّ شتاء الحجاز كقيظ الشام، وقرأنا في حائطها الداخل، الذي بين الركن اليماني والركن الذي يلي حجر إسماعيل تاريخ تجديد رخامها الداخل من أبي جعفر المنصور المستنصر بالله في حدود الستمائة، وهذا هو أبو جعفر منصور بن الظاهر ويلقّب بالمستنصر، وهو والد المستعصم آخر ملوك بني العبّاس، وتاريخ آخر بتجديده من السلطان محمد خان في حدود الثمانمائة، وآخر من بعض الملوك.

الشريف عون

وكان حج السيّد رحمه الله في إمارة الشريف عون، وولاية أحمد باشا والي الحجاز. أما عن علاقة أمير مكة بأهلها فقال رحمه الله: وكان أهل مكة يخافون الشريف عوناً ويبغضونه، خوفاً وبغضاً شديدين، ويميلون إلى ابن أخيه الشريف علي، الذي تولّى إمارة مكة بعد وفاته. ووالي الحجاز من قبل الدولة العثمانيّة ليس له مع الشريف من الأمر شيء، وعنده عساكر نظاميّة؛ وعند الشريف عسكر يسمّى البيشة.

وبقي سيدنا رحمه الله في مكّة إلى الثامن والعشرين من ذي الحجّة الحرام، حيث خرج منها بطريق البر مع أمير الحج الشامي عبد الرحمن باشا اليوسف، من

أمراء أكراد صالحيّة دمشق.

قال رحمه الله: فخرجنا من مكّة إلى الشيخ محمود، وهو بمسافة ساعة عن مكّة، وكانت أجرة الخشب الشامي من مكة المكرّمة إلى دمشق اثنين وأربعين ذهباً عثمانياً في حمل الحاج علي آغا الشيرازي، وذلك مع أجرة الذهاب والإياب إلى عرفات. وأجرة الكجاوى اثنين وثلاثين ذهباً، والراكب أحد عشر ذهباً.

والشيخ محمود مسمى باسم ولي مدفون هناك، قال رحمه الله: ثم ارتحلنا صباحاً من الشيخ محمود إلى وادي فاطمة كما يسميها أهل الشام، وأهل العراق يسمونها وادي الشريف، وهو الذي كان يسمى بمرّ الظهران، أو بطن مرّ، وهو مكان فيه نخل ونهر جار وهو [على] مسافة أربعة فراسخ عن مكة تقريباً، يباع فيه لحم الضأن الجيّد، والبيض والبطيخ الأخضر والطماطم والليمون الحامض الصغير الأخضر... وغير ذلك، فبتنا فيه ورحلنا منه صباحاً إلى عُسفان، فوصلناه مساءاً، وهو مكان مشهور، له ذكر، وهو الذي حبس َ فيه هشام بن الحكم الفرزدق الشاعر لمّا مدح الإمام زين العابدين عليه السلام بالميميّة المشهورة.

والمسافة بين عسفان ووادي فاطمة نحو من اثنتي عشرة ساعة، وريّضوا نحواً من ساعة عند منتصف النهار كما هي العادة، ويسمونها راضة الظهر؛ فيبقون الأحمال على الجمال، ولا ينصبون الخيام، فيتغدّون ويصلّون ثم يسيرون.

وعادة الركب الشامي أن يضرب مدفعاً عند النزول وآخر عند الرحيل؛ ولمّا لم يتحقق زوال الشمس قبل المسير صلّينا الظهرين في أثناء السير، وحملنا الماء من وادي فاطمة إلى عسفان، وقيل: إن بعسفان ماءاً، لكن يتعسّر الوصول إليه لدخول الليل، ومنع العسكر المحافظ على الحجاج من الخروج خارج «الزنجير»، أي العسكر المحيط بالحاج من العسكر النظامي والجندرمة، الذين رسمهم أن يسيروا يمين الحاج وشماله حالة السير، ويحيطون به عند النزول، فلا يدعون في الليل أحداً يخرج ولا أحداً يلج إذا لم يعرفوه، فيصيحون به ثلاث مرات، فإن لم يجب رموه

فقتلوه ؛ كما وقع ذلك لبعض الحجاج الذين لا يعرفون العربية ، وطول الليل يتصارخون ، فيصيح أحدهم «كركون» فيجيبه الذي يليه «حازرون» ، وهكذا دوراً حتى تنتهي النوبة إلى الأول ، فلا يزال هذا دأبهم طول الليل .

وفي الأعيان ذكر السيد رحمه الله هؤلاء الحرس المرافقين للحاج فقال عنهم: و الجمال قطاران تحيط بهما العساكر السلطانية يميناً و شمالاً ، ففي أحد الجانبين عسكر شاهاني على بغال ، و في الجانب الآخر «جندرمة» على خيل ذكور؛ و بين كل واحد و آخر مرمى حجر ، و أمام الكل قائد معه مدفع على جمل ؛ فإذا وصل الحاج إلى المنزل أقام قسم من هذا العسكر بالتناوب حول الحاج ببنادقهم و بين الواحد و الآخر مرمى حجر فيصيح الأول «كركون» فيجيبه الآخر «حازرون» و يصيح للذي بجانبه كركون فيجيبه حازرون حتى ينتهي الدور و يبدأ غيره فلا يزالون كذلك إلى الصبح[1].

قال رحمه الله : وفي ساقة الحاج عسكر من عرب عقيل ، موظفون من طرف الحكومة لحمل الضعيف والمنقطع به ؛ لكنّهم لا يفعلون ذلك إن لم يسلبوه .

النظام في القافلة الشاميّة

وجاء السيد رحمه الله على ذكر النظام المتّبع في مسير قافلة الحج الشاميّة ، فقال : وكان للحاج الشامي من الترتيب والنظام ما يوجب راحة الحجاج ؛ من ذلك أنّ السير يكون بقطارين أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار . والحاج قوافل متعددة ، ولكل واحدة رئيس ، يسمى «مقوماً» ، ويسميه العجم وأهل العراق «حملدار» ، فيسير كل رئيس بقافلته ، ميمنة وميسرة ، هذا أولاً وذاك بعده ، وهكذا في كل يوم ، وجمال كل قافلة لا يتغيّر مكانها ، فمن كان بعيره أولاً في أول يوم بقي كذلك إلى آخر يوم ، ومن كان في الميمنة ، لا يتحول إلى الميسرة ، وبالعكس .

---

(١) أعيان الشيعة ١٠: ٣٦٣ - ٣٦٤.

وإذا سارت الجمال ليلاً، حمل قائد كل جمل، ويسمّى عكّاماً، فانوساً بيده؛ فيُرى لهم من بعيد صورة جميلة، فيرى الرائي مصابيح تتقد في البر سائرةً صفّين، ولا يرى غيرها. وخيام كل قافلة لها جمال مخصوصة وأناس مخصوصون يسمّون «المهاترة» يسبقون الحجّاج، وينصبونها أول يوم على ترتيب خاص لا يتعدونه إلى آخر السفر، وخيام كل قافلة في مكان مخصوص لا تتعداه، هذه أولاً، وتلك بعدها، وهكذا. وكذلك كل خيمة لها مكان مخصوص لا تتعداه؛ وخيام كل قافلة كأنها بلد بنفسها، بأزقّتها وبيوتها، لا تتغير، فلو ضلّ إنسان في حال السير أو النزول، يهتدي إلى مكانه بأيسر ما يكون، حتى كأنّه في بلده.

وفي ذلك اليوم [يوم المسير من وادي فاطمة إلى عسفان] وقع كثير من الأباعر بأحمالها في أثناء الطريق، ما يقرب من خمسين بعيراً، بعضها قضى نحبه في الحال، وتناولته شفار السودان الذين يسيرون مشاةً مع الحجاج، فقطّعته إرباً إرباً، وربّما كان ذلك قبل خروج روحه؛ وبعضها سلم بعد وضع حمله على غيره، ومداواته بالفصد في أنفه، وصبّ الماء على سنامه وبدنه، وذلك على ما قالوا بسبب سمنها واشتداد الحر، مع أن الفصل شتاء، ولكن من «البارخانة» التي نحن فيها، لم يمت بعير واحد. ورأينا هلال المحرّم بعسفان، ليلة السبت مفتتح ١٣٢٢. وفي عسفان بئر يسمى بئر التفلة، يقال: إن النبيﷺ تفل فيها فعذب ماؤها.

الخُليص وتعرّض بعض الحاج للسلب

قال السيد رحمه الله: وخرجنا صباحاً من عسفان، قاصدين الخُليص، بوزن المصغّر؛ فوصلناها منتصف النهار، وماؤها لا بأس به، وفيها البطيخ الأخضر الجيد والقثاء والبصل واللحم وغير ذلك، وفيها بعض النخل، وهي مسكونة من الأعراب، ثم سرنا منها صباحاً، فثار بعض الأعراب على رجلين من أهل معرّة النعمان، معهما بعير وأحدهما راكب عليه، فجرحوا الماشي وأخذوا هميانه بما فيه من النقود وأخذوا الراكب وجمله، فذهبوا به، ولا يعلم رفيقه حي أم ميت؛ رأيته

يمشي في الطريق مضرّجاً بدمائه وقد ورم رأسه من الشمس، حتى أخفى الورم عينيه. وهؤلاء الأعراب ـ كما قال لنا شيخ الفراشين حينما كنا في داره في المدينة المنورة وعنده بدوي ـ فقال مشيراً إليه: هذا وقومه يشتغلون في وقت الحج بسلب الحجاج، فإذا انقضى الموسم اشتغلوا بالحرب والغارة بينهم؛ لا شغل لهم إلا ذلك.

فوصلنا إلى الكَظيمة ـ بفتح الكاف ـ قبل الغروب بأربع ساعات، وفيها بئر عظيمة وهي مسكونة من الأعراب، يباع فيها التمر والبطيخ واللحم وغيرها، وفيها من البنادق الدولية من كل جنس، حتى إنني رأيت فيها بندقيةً إيرانية؛ وفي مائها ملوحة ورحلنا منها ليلاً في الساعة الثامنة والنصف إلى رابغ، وإنما مشوا ليلاً لبعد المنزل، وخوف سقوط الأباعر من الحر، كما جرى بين وادي فاطمة وعسفان؛ فوصلناها عند الغروب، وهي الجحفة أو قريب منها.

وفي محلٍّ يبعد عنها بعض البعد مسجد غدير خم، وهو مسجد بُني في الموضع الذي نصب فيه رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وصياً وخليفةً بعده، فنزل في ذلك الموضع في حر الظهيرة، وخطب الناس فقال: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا: بلى. قال: من كنت مولاه، فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه كيفما دار، في حديث مشهور. وكان المسجد متهدّماً، فبناه بعض ملوك الهند من الشيعة، ولم يمكنّا الذهاب إليه لخوف الطريق.

ورابغ ميناء على شاطئ البحر الأحمر، عامرة وماؤها شروب، وفيها قلعة صغيرة بعيدة عن البلد، يسكنها شرذمة من العسكر العثماني، وحين وصول الحجاج رفعوا العلم العثماني، وأطلقوا عدّة مدافع كما هي العادة؛ لكن العداوة بينهم وبين أهل رابغ متأصّلة، فلا يجسرون على الخروج إلى السوق أو لجلب الماء إذا كانوا دون العشرة. وفيها من البنادق الدولية المختلفة الأجناس ما لا يحصى عدده، وهو أزيد مما في الكظيمة، وكذلك أكثر بلاد الحجاز. وجملة من الحاج يشترون

البنادق بثمن بخس ويخفونها في أمتعتهم خوفاً من التفتيش إذا دخلوا الشام. وفيها دهن البيلسان، الذي تداوى به الجراح والرضوض؛ يجنيه الأعراب من شجر هناك، وقد اشترينا منه قنينةً، فلما فتحناها وجدنا أكثرها ماءً؛ وشيئاً قليلاً من الدهن على وجه الماء، فكأنّ هؤلاء الأعراب أخذوا على أنفسهم النهب في كل شيء.

وثارت فيها العواصف والعجاج الشديد، وقد وصلناها عند الغروب، فبقينا فيها تلك الليلة، ويومها إلى ما بعد العصر، ثم رحلنا منها إلى مكان ليس بمعدٍّ للنزول، فسرنا نحواً من ست ساعات، فوصلناه الساعة الرابعة ليلاً. وبعد الفجر رحلنا منه فوصلنا ضُحى إلى بئر الشيخ، وكانت هي المنزل، لكن خوف سقوط الأباعر من الحر، منع من السير رأساً إليها من رابغ، مع كون الفصل شتاءاً، فسقوا الدواب من تلك البئر، وفي أثناء الطريق آبار كثيرة ماؤها شروب...

ثم رحلنا إلى مكان ليس بمنزل ولا فيه ماء، ثم رحلنا منه إلى المستورة، ورحلنا ضحى من المستورة إلى بئر الحصان فوصلناها بعد المغرب؛ وعند الفجر رحلنا منها إلى خلص، ثم منها إلى بئر الدراويش؛ فوجدنا ماءه قليلاً، والذين تأخروا لم يستقوا شيئاً، ومات بعض الحمير والأباعر تلك الليلة من العطش، ثم رحلنا منها الساعة السادسة ليلاً إلى المدينة المنورة.

بعض صعوبات الطريق

ذكر السيد رحمه الله في الأعيان أموراً لم يذكرها عندما سرد هذه الرحلة في الجزء الثاني من معادن الجواهر، لذا لزم إثباتها، لأنّها تعكس بعض مصاعب السفر في تلك الفترة، قال أعلى الله مقامه: و لما وصلنا إلى مكان يدعى المضيق، وهو طريق ضيّق بين جبلين، جاء الخبر إلى أمير الحاج عبد الرحمن باشا اليوسف الكردي بأن الأعراب وقفوا ببنادقهم على أعلى الجبلين، فإذا مر الحاج تناولوه بالرصاص، فلا يفلت منهم أحد.

وكان لشيوخهم «خاوة» على السلطان، فكان يبعث بها من استنبول، فكان يأكلها من يتولّى إمارة الحاج مع مشاركة غيره، فأرسل أمير الحاج تلك الليلة إلى شيوخهم فأرضاهم، و جمع البيارق التي توضع عادةً فوق الحجاج و نصبها حوله ليوهم الأعراب أن معه عسكراً كثيراً، و سار الحاج في اليوم الثاني في ذلك المضيق بسلام، و لم نزل نسير حتى وردنا المدينة المنورة[١].

المدينة المنورة

دخلنا المدينة المنورة يوم الأحد بعد الظهر، وزال العناء، واشتدّ الفرح والسرور لمّا شاهدنا القبة الخضراء الشريفة والمنائر المنيفة؛ من جميع الحاج. ودخلنا من باب رأينا في أعلاه مدفعين خارجين من كوتين، ونزلنا في بستان خارج السور، فيه دار، وفيه نخل وبركة ماء يستقي لها على الناضح؛ وهو ملك لبعض «الطواشية» خدام الحرم الشريف النبوي، ويسكنه ويقوم بأعماله بعض النخاولة، فزرنا الحضرة الشريفة النبوية، وقبّلنا الشفاه على تلك الأعتاب الشريفة، وفزنا بنعمة الدخول إلى الحجرة المطهرة بسبب أوراق مأخوذة من الأستانة، تتضمّن الإذن بخدمة الحجرة المنيفة حسب المعتاد.

الدخول إلى الحجرة الشريفة

فذهبنا أولاً إلى بيت شيخ الفراشين لتقييد أوراق الرخصة عنده، وقال لنا: تأتون في الساعة الحادية عشرة إلى الدكّة التي في الحرم المطهّر، حيث يجيء المحافظ وهو عثمان باشا، فحضرنا في الوقت المضروب، فوجدنا شيخ الفراشين هناك، ثم جاء ضابط عثماني يحمل نياشين كثيرة، فقال لنا شيخ الفراشين هذا خفية؛ وهو من الشام، فعرّفه بنا وقال له: هؤلاء من أقارب الشيخ أبي الهدى، فقال: ما أكثر من يقرب بأبي الهدى، ثم التفت إليّ وقال: ما اسم أقارب أبي الهدى الذين في حلب،

(١) المصدر نفسه: ٣٦٤.

وفي موضع كذا وكذا ؟ فقال له شيخ الفراشين : وهل كل من كان أقارب أبي الهدى يلزمه معرفة جميع عشيرته وهم متفرقون في البلاد ؟! فسكت ؛ ثم جاء عثمان باشا محافظ المدينة ، وشيخ الحرم لابساً العمامة البيضاء والجبّة والقباء ، وهو رجل أبيض اللون ، أبيض اللحية ، طويل القامة ، فقام الحاضرون كلّهم وقبّلوا يده ، أما أنا فلم أقبّلها .

فجلس قليلاً ، وأذّن المؤذن لصلاة المغرب ، وكان ذلك الضابط إلى جانبي في الصف ، فقال لي: أنا في كل سنة أحج وأزور عن السلطان ، وجعل يعلّمني كيفيّة الدخول إلى الحجرة الشريفة ، فشكرته . وبعد الفراغ من صلاة المغرب ، أتونا بفرجتين بيضاوتين وأتوه بعمامة بيضاء ، أما أنا فاكتفوا بعمامتي الخضراء ؛ وهكذا كل من يريد الدخول يؤتى له بفرجية ، وهو ثوب أبيض محيط بالبدن ، يلبسه فوق ثيابه ويتعمم بعمامة بيضاء إن لم يكن متعمماً؛ فدخل محافظ المدينة لابساً الفرجية ، وخلفه المأذون لهم بالدخول ، وفي يد كل منهم شمعة صغيرة ، فيضيئها ويشعل أحد القناديل التي داخل الحجرة الشريفة ليتشرّف بالخدمة ؛ ويزور المحافظ ومن معه النبي صلى الله عليه وآله ثم صاحبيه ، ثم الزهراء ، يتلو لهم الزيارة بعض السدنة ، وهم يتابعونه .

و هذا الدخول إنما هو بين الحاجز الحديدي الدائر حول الحجرة الشريفة وبينها ، بحيث يمشي الداخل حول حائط الحجرة الشريفة ، أما نفس الحجرة فبابها مسدود ، ولا يمكن الدخول إليها ولا رؤية القبر الشريف .

مزارات المدينة

قال السيد رحمه الله : وتشرّفنا بزيارة سيد الشهداء حمزة بأحد ، وسائر الشهداء ؛ والمسافة بين المدينة المنورة وأحد نحو من فرسخ ، ولم نتمكّن من زيارة مسجد قبا ، مع أنه لا يزيد عن هذه المسافة لشدّة الخوف ، فضلاً عن مسجد الفضيخ ومشربة أم إبراهيم وغيرها ؛ لكننا تشرّفنا بزيارتها بعد ذلك ، فذهبنا من

الشام في السكة الحديدية وزرناهما بصحبة عرب العوالي.

وبقينا في المدينة المنورة ستة أيام وخرجنا منها بعد الظهر.

طريق الرجوع إلى الشام ومحطاته

كان طريق السير من المدينة إلى الشام يمرّ بمناطق مختلفة، والمسير يتم في طريق معلوم، وهناك أماكن خاصة للنزول معدّة لذلك لأجل الراحة والتزوّد بالماء والطعام؛ وكما وصف السيد رحمه الله بعض هذه المحطات في طريقه من جدة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة كما مر، فإنّه يستمرّ بالوصف على هذا المنوال عند الخروج من المدينة قاصداً الشام؛ قال رحمه الله يذكر المناطق التي مرّ بها بعد الخروج من المدينة المنورة:

الجرف، وهو معسكر المدينة قديماً، وهو على نحو فرسخ منها، ورحلنا من الجرف الساعة السادسة ليلاً إلى بئر جبر فوصلناها أول النهار، وقبل الغروب رحلنا منها إلى اصطبل عنتر، فوصلناه قبل المغرب من اليوم الثاني، فبتنا فيه، وبعد العصر رحلنا منه إلى هدية فوصلناها صباحاً، وماؤها مالح لكنه قريب من وجه الأرض، وفي أي محل حُفر يخرج الماء، فأقمنا بها إلى ما بعد العصر، ورحلنا إلى براقة، فوصلناها بعد طلوع الشمس ولا ماء فيها، وبقينا فيها إلى الساعة التاسعة من النهار، ثم رحلنا منها إلى قلعة الحديد، فوصلناها الساعة الثالثة ليلاً، فبقينا فيها بقيّة تلك الليلة، ونهارها إلى الساعة التاسعة، ورحلنا منها إلى قلعة الزمرد، وهي على ثمان ساعات من قلعة الحديد، وفيها بعض العسكر، فلم نبت بها؛ وواصلنا السير قاصدين سهل مَطَران بالتحريك، فوصلناه عند طلوع الشمس وبقينا فيه إلى ما بعد العصر من ذلك اليوم، ثم سرنا قاصدين آبار الغنم، فوصلناها الساعة الخامسة ونصفاً من الليل، ورحلنا منها الساعة العاشرة ليلاً إلى مدائن صالح.

مدائن صالح

فوصلناها قبيل طلوع الشمس، وأقمنا فيها بقية ذلك اليوم والليلة التي بعده إلى الظهر، وفيها بئر عذب ماؤها وسط القلعة، وهي مدائن ثمود قوم صالح عليه السلام، وبيوتهم المنحوتة في الجبال بدرجها الظاهر للعيان باقية إلى اليوم على أبدع شكل وأتقنه؛ يراها المارّ على الطريق قبل الوصول إلى القلعة، وبعد الوصول إلى المنزل حاولنا الذهاب لرؤيتها فمنعنا عدم الأمن؛ وسمعنا ونحن بالمدائن أعرابياً راكباً على ناقة، ينادي: يا شاري العرض بالعرض، فقلت لأصحابي: ما يقول هذا؟ قالوا: لا نعلم. قلت: يريد المبادلة على ناقته بناقة أو جمل، لا بيعها بدراهم. وقريب منها بلدة تسمى العلا، وذات مياه وبساتين فجاء أهلها إلى مدائن صالح ومعهم الشعير والسمن والتمر الجيد والليمون الحلو والحامض، وهو كبير الحجم للغاية، كثير الماء شديد الحلاوة والحموضة.

طريق صعب.. وخرافة

ثم سرنا من مدائن صالح بعد الظهر قاصدين ظهر الحمراء، فسرنا بقية ذلك اليوم، وتلك الليلة، وساعتين ونصفاً من اليوم الذي بعده، فكانت المسافة نحواً من اثنين وعشرين ساعة، والطريق وعرة جداً، ومررنا بين جبلين على هيئةٍ واحدة وعلوٍّ واحد، كأنهما ساريتان، وبينهما مقدار ممر قطارين من الجمال فقط، والناس يسمّونها جبل أبوطاقة، تشبيهاً لما بين الجبلين بالكوة في الحائط؛ والطريق بينهما في مكان ذي رمال تغوص فيها أيدي الجمال وأرجلها، وتسير صعوداً، وأكثر الناس ينزلون من المحامل عدى العاجز والمرأة، ويعلو هناك الصياح والضجيج من أهل القوافل، وربّما ضربوا بالطبول؛ وأصل استعمال ذلك لتهييج الإبل على السير؛ خوفاً من وقوفها وسقوطها لصعوبة الطريق بسبب الرمل والصعود، لكنّه شاع بين العامة أنّ هذا الصياح لئلا تسمع الإبل حنين فصيل ناقة صالح، الذي هو متغيّب في ذينك الجبلين على زعمهم فتموت؛ والطريق بعد ذلك أكثره صخور ومزالق ورمال.

إن ما مر يعطي صورة عن صعوبة الطرق، والمخاطر التي تحف السائر عليها، وخصوصاً الطرق الصخرية، حيث يكون السائر معرّضاً للسقوط زلَقاً سواء كان راكباً أو ماشياً، عدا عن الإنهاك الحاصل من طول الركوب أو المشي.

الأخضر، واحة الطريق

ثم قال السيد رحمه الله: وبقينا في ظهر الحمراء من الساعة الثانية والنصف نهاراً إلى الساعة التاسعة؛ ثم سرنا بقية ذلك اليوم، وتلك الليلة، ووصلنا في الساعة الثالثة من نهارها إلى المعظم. فكانت المسافة بينهما نحواً من سبع عشرة ساعة، والمعظم فيه قلعة عظيمة، ماؤها من المطر، لكنه لم يكن فيها ماء. وسرنا من المعظم الساعة التاسعة من نهار اليوم الذي وصلنا فيه، فوصلنا الأخضر ضحوة الغد، فكانت المسافة بينهما نحواً من إحدى وعشرين ساعة، والطريق من

المدائن إلى الأخضر ليس فيه ماء، وهو ستون ساعة و قطعناه في ثلاث مراحل، وحملنا الماء معنا من المدائن إلى الأخضر، وفي الأخضر قلعة فيها بعض العسكر؛ وفي وسطها بئر ماءها غزير وعذب جداً، وعليه ناعورة، تديرها دابة، فتصبّ في بركة كبيرة، فإذا جاء الحاج وجدها مملوءة، فلا يخرج حتى ينفذ ماؤها ولولا ذلك لكثر الزحام، ولعلّه يسمى بالأخضر لوجود العشب حوله بخلاف باقي المنازل التي هي قاحلة جرداء، ومن الأمثال فيه «إذا ما وصلت إلى الأخضر، فامش وتبختر» لجودة مائه وغزارته، فبقينا فيه ذلك اليوم والليلة التي بعده إلى الصباح.

إلى تبوك

ثم سرنا حتى وصلنا إلى منزل يدعى ظهر المغر، ليس فيه ماء، فوصلناه الساعة الحادية عشرة من النهار، فبتنا به تلك الليلة وخرجنا منه قبل الفجر بساعتين تقريباً، أعني الساعة الثامنة من الليل فوصلنا إلى تبوك الساعة الرابعة من النهار، وهي بلدة مسكونة بقليلٍ من الأعراب، وفيها آبار كثيرة عذبٌ ماؤها، ونخل وكروم، ونخلها للحكومة، وشرينا منها اللحم والسمن والزبد بثمن رخيص.

وجاءتنا بها بعض الهدايا من الشام، وكان حقّها حسب العادة أن تجيء إلى مدائن صالح مع الجردة، إلا أن الجردة لاقتنا بالأخضر، والأمانات بعضها وصل في تبوك والأكثر بقي في معان. وهي التي غزاها النبيﷺ ولم يلاق حرباً. وفيها مسجد يقال: إنه فيه صلّى النبيﷺ؛ وقلعة مشيدة هي أحسن ما رأيناه من القلاع قبلها. وكتب على بابها على الكاشي أنها بنيت بأمر فلان من السلطان محمد خان من بني عثمان سنة ١٠٦٤. وفيها بيوت خربة ومزارع حنطة وشعير. وبقينا بها بقيّة ذلك اليوم والليلة التي بعده إلى الساعة الثامنة ونصف.

محطات مختلفة

ثم خرجنا قاصدين القاع، فوصلناه قبل الغروب بنصف ساعة تقريباً، وهو منزل لا ماء فيه. وخرجنا منه آخر الليل فوصلنا ذات حِج، قبيل المغرب، وهي بكسر الحاء المهملة بعدها جيم، وفيها قلعة جيدة وفيها بعض العسكر، جدّد بناؤها زمن السلطان عبد المجيد، وفيها عيون ماؤها غزير على عمق ذراعين عن وجه الأرض، ماؤها لا بأس به؛ وفيها بعض نخيلات، وتكثر فيها العقارب، أرضها صلبة لا تنزل فيها الأوتاد، وقد شدّوا أطناب الخيام فيها بالحجارة، وسكك الحديد.

وخرجنا منها عند الفجر إلى المدورة، فوصلناها الساعة الثامنة من النهار، وفيها قلعة محكمة، وفي وسطها عين ماؤها عذب جداً، تجري إلى برك ثلاث كبار أعدت للحاج.

وخرجنا منها آخر الليل إلى منزل ليس فيه ماء يسمى: تحت العقبة، فوصلناه بعد العصر، وخرجنا منه آخر الليل إلى منزل يسمى فوق العقبة، ومنه إلى معان، وهي بلدة معمورة، فيها قائم مقام، وهي تابعة لحكومة سوريا، فيها دار للحكومة وجامع قديم محكم البناء، وفيها ماء جار، ومزارع وبساتين فيها أنواع الفواكه، ورمّانها مشهور.

وسرنا منها إلى عَنَزَة، ويكثر فيها العجاج والغبار، من الرياح العاصفة التي تسفي الرمول.

المحطة الأخيرة

وسرنا منها إلى القطرانة، وهي بنواحي مؤتة التي فيها قبر جعفر الطيار عليه السلام ومن استشهد معه من الصحابة، وكانت السكة الحديدية الحجازية وصلت إليها، ومنها ركبنا القطار الحديدي إلى دمشق بعدما تأخرنا فيها عدة أيام، لعدم تيسّر قطار سوى القطارات المكشوفة وامتناعنا عن الركوب فيها.

ومن القطرانة إلى دمشق ست مراحل بسير الإبل، وكان السير فيها قبل السكة الحديدية هكذا على ما قيل لنا: القطرانة، المدورة، الزرقاء[1] وفيها نهر جار، ولها ذكر في التاريخ، ويسكنها الآن مهاجرو الجركس، وهي بنواحي البلقاء الشهيرة في التاريخ، القلعة، الرمثا، المزيريب، الكسوة، دمشق. والخمسة الأخيرة من بلاد حوران، أما بعد وجود السكة الحديدية، فأسماء المحطات هكذا: القطرانة ـ سواقة ـ محجة ـ ضبعة ـ جيزة ـ لبن ـ قصر ـ عمان ـ الزرقاء ـ سمرا ـ مفرق ـ نصيب ـ ذرعا [أذرعات] - خربة غزالة ـ ازرع ـ دير علي ـ خبب ـ جباب ـ مسمية ـ الكسوة ـ القدم، ويقال إن فيه أثر قدم النبيﷺ حين أتى الشام، وأنه وصل إلى ذلك المكان ولم يدخل دمشق ـ القنوات (محلة بدمشق).

هنا قال السيدﷺ: انتهت الرحلة الأولى الحجازية والحمد لله رب العالمين.

(١) علقﷺ في الهامش فقال: وقد مر أن المدورة قبل القطرانة بأربع مراحل، إلا أن تكون هذه غيرها.